مايا

مجدي حافظ

(1)

كفر عبدُه– الإسكندرية عام ١٩٥١

فيلَّا عظيمة الرونق يغلُب عليها النقوش والعقود والتيجان البنائية البديعة علي الطراز الإيطالي وحديقة لاتقل رونقًا وجمال عن قطعة من حدائق فرساي؛ تتلألأ بالأنوار المنبعثة من قلب الفيلا وعلي الأسوار المحيطة بها؛ قربها من قصر (كتشنر) يجعلها ذات أهمية متفردة؛ فهي تقع أيضًا بالقرب من قصر الأميرة فوزية شقيقة الملك فاروق، ولاتبعد عن قصر قرداحي بالكثير؛ جعل هذه المحظية " لوسيان " الأرمنية التي تزوجت من أحد أصحاب الحظوة والجبروت في زمن فؤاد الأول وفيلتها ذات حظوة ومكانة كبيرة لدي جيرانها، الحفلات الراقصة والموسيقي الصادحة لم تنقطع عن هذه الفيلا حتى ينتصف الليل وينصرف ضيوف الحفلة وتبقي هي وحدها.

لاتنقطع الدموع عن وسادتها وهي تندب حظها العاثر، وتري حلمها أصبح كسرابٍ حيث رؤية زوجها و قد تركها مهملة بالرغم مايحمله لها من حب، أدركت أن زوجها لم ينقطع عن محظياته الأخريات، وكانت هذه غصة في حلقها لم تستطع أن تستحوذ عليه، كان ينقصها الإنجاب ولكنها كانت عاقرًا بالرغم من جمالها الفاتن والذكاء الحاد وقربها من زوجها، إلا ان هذا لم يشفع لها عنده وهذا ما جعله يغرق في ملذاته بعيدًا عن أعين بصاصينها الذين كانوا يلاحقونه في كل مكان،

كانت لا تتورع عن تهديدهم أو إغرائهن بالمال- إن لزم الأمر- حتى كان اليوم الذي جعلها تبعد عن مطاردته وملاحقته.

أتوا من عزبة زوجها في البحيرة، كانوا عائلة مكونة من سبعة سكان في الارض التي تقع خلف الفيلا، هم مزارعين بالأجر " تراحيل " كما كانوا يسمون في هذا الوقت، كانوا من البساطة والفقر و رقة الحال الزوج والزوجة وأخ الزوجة وزوجته، وولدين وأختهم الصغرى (نبوية) هذه الطفلة الصغيرة التي لم تتجاوز السبعة أعوام، وقعت عين لوسيان عليها لقد أحبتها من أول نظرة عندما اقتربت منها لكي تتعرف على العائلة، كانت فتاة بسيطة دقيقة الجسد ولكنها لمحت في عينيها ذكاء فطري، وشغف للحياة كانت مفعمة بالحياة وكان لها من العزيمة أقوى كثيرًا من بعض الرجال ، وربما لايبدو عليها كذلك بالرغم من رقة حالها وحال أسرتها.

الأرض التي خلف الفيلا وهي ملك حفيد إحدى البكوات المقربين من العائلة العلويّة الذي تحول إلي صاحب الجبروت في زمن والد فاروق الأول، كانت تحتاج إلي عناية كانت في مخيلته أن تتحول هذه الأرض إلى حديقة لزراعة أندر الزهور، حتى ينافس زهور الأميرة فوزية، وكان هذا بإيعاز من ملك مصر نكاية في أخته.

لم يصدق الأب مايسمعه من صاحبة الأرض، هل ما سمعه حقيقيًا أتريد أن تشتري ابنته منه؟ أن تدفع أموال له مقابل نبوية لم يصدق ما سمعه، عارض ما قالته على استحياء وفي ذكاءٍ فطري: "إن الأبناء لا يُباعوا ولا يشتروا بل هم نعمة من الله".

كانت تبكي عندما سمعت حديثه نعم إنها تصدق كل ما قاله، لقد وقع حب نبوية في قلبها، وحاولت أن تُغري والدها بأموال ولكنه لم يوافق، كانت تستطيع أن تأخذ ابنته عنوة ولكنها لم تفعل لاتدري لما لم تفعل، حتى وصلت إلي حل وهي أن تستضيف نبوية لمدة ستة أيام وترجع إلى أهلها في اليوم السابع، مقابل مبلغ من النقود يدفع شهريًا للأب.

لقد وافق الأب علي النصف الأول من الرجاء ولكنه لم يوافق علي النصف الأخر بالرغم من احتياجه و أيضًا كان له رغبة في أن يرى النعمة على ابنته التي كانت في حالة من الإقبال على الحياة ولقد وجد ضالته لابنته في ظل هذه المحظية الفاتنة.

-مايا- - مايا-

يبدو الاسم غريبًا علي مسامع الخدم الذين تناثروا علي السلالم العلوية، أو في الحجرات الداخلية لهذه الفيلا، عندما يروا لوسيان تجري من غرفة إلي غرفة وراء " نبوية" التي غيرت اسمها إلي مايا كان وقع الاسم غريبا، اللحاق بهذه الأعجوبة الصغيرة الجسد التي قلبت حال الفيلا من النقيض إلي نقيض آخر، صاحبة الفيلا لم تعد إلي سابق عهدها، السهرات التي لاتنقطع عن الفيلا قد أصبحت حديث الذكريات بين أصحابها، لقد خفتت صوت الموسيقى التي لم تتوقف طوال الفترة الماضية، الصورة تغيرت أصبحت لوسيان هي التي تعزف علي البيانو العتيق أجمل الألحان الراقصة كانت تشعر بالسعادة المفرطة وهي تري" مايا" بجانبها على الكرسيّ الأحمر المخمليّ في مواجهة البيانو العتيق.

لقد تبدل حال نبوية بالكامل من فتاة ذات أسمال قذرة، إلي فتاة تنافس بنات الطبقة المخملية، كان الصراع على أشُدهِ من حجرة إلي حجرة وسط نظرات التعجب من باقي الخدم الذين كانوا يحسدون هذه الفتاة على الحظوة التي حظيت بها في ظل هذه الفاتنة التي انقلب حالها تمامًا، حتى تقع مايا في يد لوسيان وهي تمطرها بقبلات مصطحبة إياها إلى الحمام.

بالرغم من السعادة التي تبدو عليها إلا أن مساء الجمعة يبدو مساءً حزينًا للوسيان لأنه حان أن تذهب مايا أو نبوية إلي أهلها لقضاء مساء الجمعة بالكامل معهم قبل رجوعها في مساء السبت.

مرت أشهر وتسربت الأنباء إلي أخو المحظية لوسيان، تنامت إلى أسماعه أخبار هذه الطفلة الصغيرة التي سرقت لب اخته، وزاد من احتقان هذا الأخ أن أخته قد حرمته من أموالها لأنه لم يتوقف عن عمل كل ماهو مُنكر، لقد طردته شر طردة من منزلها؛ بسبب أصدقائه الذي سلك سلوكهم اعتمادًا علي سطوة زوج أخته إذا ساءت الأمور، لم يتوقفوا عند هذا الأمر بل أوغروا صدره ضدها بعد أن سربوا أخبار هذه الصغيرة التي استحوذت على عقل "لوسيان"، بل زادو في القصيدة بيت بإيعازٍ منهم أن أخته على وشك أن تترك لها جزءًا من ثروتها، لقد استشاط غضبًا وهو يتوعد أخته وهذه الصغيرة التي غيرت من حياة "لوسيان" بذكائها وعفويتها.

obeikandl.com

دخل إلى فيلتها بصحبة أصدقائه بعد أن تخطى الباب الأمامي متجاوزًا البواب، الذي حاول أن يستوقفه، ولكنه قد طرحه أرضًا بعد أن قام أصدقائه بركله شاهرين أسلحتهم في وجه كل من يتوقف أمامهم، كانت لوسيان ومايا في الحمام حتى تستعد للبيات في بيت أهلها خلف الفيلا، لم تتصور أن أخاها سوف يقتحم الحمام عليها وعلى ابنتها المتبناة بهذه الطريقة البشعة ومن معه شاهرين أسلحتهم، كانت تعليماته ألا يتركوا أهل نبوية أحياء.

لقد وقفت لوسيان أمام أخيه الذي سحبها من يدها بقوة وألقاها إلى أصدقائه الذين تلقوها خارجين بها، وهي تصرخ متوسلة ألا يفعل شيئًا يغضبها، وأن يبتعد عن مايا ولا يمسها بسوءٍ، لقد وقفت مايا في وسط المغطس الصغيروهي تحتمي بجسدها العاري من العيون المتنمرة بها!

- أنتِ الفلاحة القذرة التي سلبت أختي عقلها وأموالها لن يكون لكِ وجود بعد الآن!

لقد دفعها إلى قاع المغطس الصغير قابضًا علي عنقها الصغير، وهو يرى فقاعات الصغيرة متصاعدة من أنفها تحاول أن تستجمع أنفاسها المتبقية، وتصارع بيديها الصغيرة القبضة الفولاذية على عنقها ولكنها فشلت في الفكاك منه، ولكنها بعد دقائق قد تسمرت بعينها الصغيرتين في وجه هذا القاتل لقد طبعت صورته في عينيها، وترسم ملامحه في ذهنها، لقد تخشبت يديه علي عنقها وهو يرى هذه النظرات قد تغلغلت في نفسها، حاول أن يرفع يديه عن عنقها ولكنه لم يستطع بل جذبته إليها بقوة بدون أن تتحرك من قاع المغطس، لقد حاول بشتى

الطرق أن يفلت منها ولكن يديه قد تعلقت بعنقها، سحب مسدسه بيده اليسري وأطلق الرصاص على وجهها حتى انفجرت الجمجمة الصغيرة، وتناثرت الدماء علي جوانب الحمام الصغير وتلونت المياه بلون الدم الأحمر وهو ينظر في جنون إلى ما فعله، لقد أخذ يصرخ:

- لم أقصد أن أقتلها، لقد تعلقت في يدي ولم تتركني، كانت عيناها تلاحقني بقوة؛ شعرت أنها سوف تنال مني حتى وهي مقتولة!

أصدقاؤه قد تحولوا إلى وحوش في هذه الليلة؛ لقد انتفض الشارع الهاديء على صوت الرصاص المنطلق في هذه الفيلا التي طالما شهدت أحداثًا وحفلات يحكي عنها القاصي والداني، لكن هذه الليلة شق الرصاص هدوء الليل وصوت الحي الهادئ، لقد ذهبوا إلى منزل عائلة نبوية الذين كانوا ينتظرونها لتناول العشاء معهم، دخلوا المنزل عنوة وهم شاهرين أسلحتهم؛ أطلقوا الرصاص بدمٍ بارد وتساقطت أفراد العائلة مثل الذباب، لقد سالت الدماء في هذه الليلة في جميع أركان المنزل.

اقتربت لوسيان رويدًا رويدًا من المغطس الصغير وهي ترى بقعًا من الدماء قد تعلقت في قدميها العارتين لم تستطع لوسيان أن تتحمل مشهد هذه الطفلة البريئة التي قتلت بدمٍ بارد وبدون ذنب، لم تقدر على الوقوف لقد أصابتها لوثة عقلية عندما رأت الدماء قد تناثرت علي جوانب الحمام، ثم سقطت مغشيًا عليها،

obeikandl.com

وهي تنظر إلى الرأس الذي انفصل عن الجسد متناثرًا في قلب الماء التي تلونت بلونٍ أحمر قاني.

(2)

وقتنا الحالي

- تموتين مثل لوسيان!

لم أعبأ كثيرًا بما قاله، لقد بهت بما قاله ومن هي لوسيان؟ ولكني تناسيت الأمر في غمار الحياة التي خضتها حتى توارت في دائرة النسيان، استرجعتها مرة آخرى لمخيلتي وأنا أنظر في وجهه المرتعب، وهو يخبرني بنبؤته ممسكا بكف يدي متفحصًا إياه في دهشة ممزوجة بألمٍ واضح، حاولت أن أستفسر منه عن هذه الرؤية أو هذه النبوءة، ولكن الصمت قد غلب عليه ولم ينبس بحرفٍ واحد، كذب المنجمون ولو صدقوا!

استرجع هذه الذكريات التي مر عليها جزء ليس باليسير من عمري؛ كان همي الوحيد الرجوع إلي الفيلا حتى أجمع جميع متعلقاتي، فتحت باب الفيلا متطلعة للحظات السعيدة والكئيبة في هذه الفيلا الذي وضعت وصنعت، ورأيت فيها أحلامي في كل ركنٍ من أركانها، مع زوجي وابنتي الراحلان، عملي الذي اتقنته وجعلني في مكانة مرموقة داخل الشركة، ابتسمت لنا الحياة بعد أن أنجبنا ابنتي الوحيدة التي كانت بالنسبة لنا محور حياتنا والكون الذي نحيا فيه من أجلها وليس ليّ وحدي ولكن لكل من رأى ابنتي، كانت جميلة وادعة حنونة حتى وصلت إلى سن السابعة، ظننا في البداية أنها ربما تكون هلاوس سمعية أو بصرية أو هي طلبات الصديقة الخفية التي أطلقت عليها اسم " مايا" التي تشاركها في حياتها اليومية

بشكلٍ آثار جنوننا بطلباتها الغريبة، حتى بدأت تظهر الخدوش والكدمات على وجه وجسد ابنتنا، لقد اتُهمنا من قبل الشرطة والمدرسة أننا نسيء معاملتها لم تكن تلك الحقيقة، كان علينا أن نواجه الواقع أمام هذه المشكلة علينا أن نستشير طبيبًا نفسيًا للأطفال؛ لأن حالة ابنتي قد ساءت، لقد انعزلت عنا في غرفتها لأيام، لم تعد تريد الذهاب إلى المدرسة.

تعددت جلسات العلاج النفسي وتحسنت حالة ابنتي قليلًا ، ولكنها لم تعد مثلما كانت بل أصابها الوجوم، بعد انتهاء إحدى جلسات العلاج النفسي، كان هناك طلب غريب من الطبيب، كان يريد أن يأتي إلى فيلتنا لكي يرى بنفسه البيئة المحيطة بابنتي، اعترف أنه كان طلبًا غريبًا ، بل وزادت علامات الاندهاش الممزوجة برعبٍ دفين علي وجهه عندما أعطيت له عنوان منزلنا!

- أ تسكنين على أرض الأموات؟!

ربما يبدو المنطق غريبًا عندما تعلم أو تشعر بشكلٍ خفي أن هناك شيئًا غامضًا يحيط بهذه الفيلا، تبدو الأرض القريبة من الفيلا مهجورة تمامًا ، وهناك سبعة شواهد للقبور لقد أصابتني بالقشعريرة، لقد أسقط في قلبي عندما ذكر هذا الاسم مرة أخرى أمامي الذي ذُكر من قبل من صاحب البقالة القابع على الطريق، والذي يتوسط مكانه مابين منزلنا وبين الطريق العام، وقُربها من سبعة قبور مجهولة الهوية لا أحد يعلم عنها شيئًا ، ولم يجرؤ أحد على السؤال عن هذه القبور الغير معلومة الهوية؛ وكأن الشيء كان متعمدًا، وهو عدم السؤال!

أعترف أنني شعرت بالرعب أنه ربما يكون علي حق لأن الفيلا -علي مستوى الأسعار في تلك الفترة- كانت صيدٌ ثميناً؛ كانت مهجورة ومشوهة المعالم، انتشرت

حولها الإشاعات، ولكننا لم نبال، لم نتخيل أننا سوف نحصل على فيلا بهذا السعر المنخفض، وكان هناك سبب أخر هو أنها كانت تبعد عن الطريق الرئيسي لمدة لاتقل عن نصف ساعة، كنت أنا وزوجي نبحث عن الهدوء والجو الصحي بعيدًا عن الضوضاء لنمو الأبناء هذا كنت ما أظنه!

حضر الطبيب في إحدى أمسيات الصيف الطويلة لتناول الشاي، كان يبدو عليه أنها ليست المرة الأولى التي يدخل فيها هذا المنزل بالرغم من التجديدات التي لحقت به، ولكنه كان علي دراية بتفصيلات الفيلا حتى الأرجوحة التي في الحديقة الخلفية؛ طلب منا أن يرى غرفة ابنتي ، لقد صعدنا سويًا إلى غرفتها، كانت صدمة لنا أن نرى مخلوق يشبه ابنتي، تمشي على الأربعة ملتصقة بسقفِ الحجرة، وتتحرك بسرعة بحركات غير محسوبة وتقطر مياه متساقطة من كل أنحاء جسدها، كانت في حالة يُرثى لها شعرها قد تساقط وجاحظة العينين وملابس رثة، كان الأكثر رعبًا أن ابنتي لم تكن موجودة في سريرها كانت تضحك بصوتٍ عالي وهي مختفية تحت سريرها، لقد تخيلت أنها تلعب لعبة الغميضة مع هذا المخلوق الغريب، لا أدري ما الذي فعلته لقد أسرعت واختطفت ابنتي من تحت سريرها التي أخذت تصرخ بشكل هستيري تطالبنا برجوعها مرة أخرى إلي غرفتها حتى لا تؤذينا صديقتها " مايا "، الوضع كان مرعبًا ولايصدق!

لقد ارجعت ابنتي إلى حجرتها مرة أخرى بُناءٍ على نصيحة الدكتور الذي أخذت ملامحه تتغير في رعبٍ شديد؛ كانت بالنسبة له قصة أخرى من قصص العفاريت التي تروى للأطفال المشاكسين حتي يهدأوا؛ كان الفضول يقتله عندما علم أن من سكان هذه الفيلات والقصور كان هناك أطفال أصبحوا كبارٌ الأن، لقد

حكوا عن صرخات يسمعونها في حوالي الساعة الثامنة من كل يوم جمعة، أن الفيلا يصدر منها في الأيام الأخرى أصوات البيانو بالرغم من خلو الفيلا من أي بيانو، لقد صدق أن أخ لوسيان قد مات موتة بشعة داخل زنزانته قبل صدور حكم الإعدام عليه كان معلقًا من قدميه في الهواء ومذبوحٍ مثل الشاة من رقبته وحول الرقبة كمية لابأس بها من المياة المخلوطة بالدماء والصابون، لم يُصدق مايقال حتى أحضر أحد السكان الجريدة التي نشرت الخبر في أوائل عام ١٩٥١، حتى أصدقائه لم يفلتوا من العقاب؛ تعددت الميتات البشعة لهم طوال عام ١٩٥٢ ، وهذه المحظية قد ماتت بسبب لوثة عقلية أصابتها بعد رؤيتها لآثار الدماء وقتل مايا، لقد امتنعت عن تناول الطعام لعدة أيام وشهور، حتى ذهب بريقها ورونقها وعافيتها.

خرجت ابنتي في هذا اليوم بعد أن تحسنت حالتها بشكلٍ كبير، رجعت وادعة حنونة وهي تمسك بيد أبيها متوجهين إلى السيارة حتى يقلها إلي المدرسة التي غابت عنها لأشْهُرٍ وبعد أن رحلت مايا لم يعد لها وجود في حياة ابنتي، كنت أستعد للذهاب إلى عملي لم تتجاوز الساعة الثامنة صباحًا حتى كان هناك طرق على الباب، لقد فتحت الباب حتى رأيت الجاويش يقف متسمرًا أمامي طالبًا مني الذهاب معه إلى القسم، لم يخبرن بالسبب بل جعلني أقفزفي سيارتي راكبٍ بجانبي؛ أسرعت في الذهاب إلى قسم الشرطة وهو يشير لي بالاتجاهات حتى وصلت إلى هناك ؛ أسرعت بارتقاء السلالم المتهالكة والكل ينظر إليَّ في تعجب من هذه السرعة؛ كانت الهواجس تتقاذفني ربما زوجي أصابه حادث سير أو ربما قد أصيب أحد في الطريق، أو ربما أحد قد حاول خطف ابنتي كما يحدث في هذه الأيام من

خطف الصغار طمعٍ في كلية أو قلب وتم ملاحقة الخاطف والقبض عليه، وبالتأكيد ابنتي في حالة يرثى لها.

لقد قابلني الضابط المُكلف وهو ينظر لي مليًا قبل أن يخبرني بأن زوجي وابنتي قد توفيا في حادثٍ فظيع بالقرب من سيدي بشر، إن الشهود العيان قد شاهدوا ابنتي وهي تتصارع مع أبيها داخل السيارة تحاول أن تغمض عينيه عن النظر علي الطريق، لكن الغريب في الأمر أن هناك من شاهد فتاة أخرى صغيرة تجلس في الكرسي الخلفي، ولا تعبأ بشيء من كل هذا، حتى اقتحمت السيارة الطريق العكسيّ واصطدمت بسيارة نقل كبيرة مسرعة؛ لقد تهشمت السيارة تمامًا، واشتعلت فيها النار حتى أتت على آخرها! - هل لكِ ابنتان؟!

لم استطع أن أتكلم؛ لقد أغمىَّ عليَّ بعد كل ما قاله، كنت أنظر إلي بقايا الأجساد المتفحمة، ولا أستطيع أن أجزم بأن هذين الشخصان من أهلي، كان حريٌّ بي أن أتمالك نفسي حتى أستطيع دفنهما، بعد أن تم سحب عينات دماء مني ومن أهل زوجي لعمل فحوصات DNA؛ لمعرفة هوية الجثث المتفحمة المشوهة.

لقد مرت أشهر قبل الرجوع إلى الفيلا، لقد تجولت في الفيلا التي شهدت ذكريات سعيدة وأخرى أليمة، لقد تسلقت السلم الرخامي والساعة تدق الثامنة من مساء الجمعة، لماذا اخترت هذا اليوم؟ لا أعلم! كان عليَّ الخروج بسرعة أدركت أنني أخطات في القدوم مرة أخرى، كنت أشعر بها في كل مكانٍ في الفيلا، ولكني لم أتحرك أنملة من مكاني، كانت المياة تتساقط من أعلى، وتتكون بركة صغيرة حولي من الدماء المخلوطة بالصابون؛ تأكدت الآن أنها مايا؛ ولم أستطع أن أنظر إلى أعلي، كانت صرخةٌ مدوية.